﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد: 27]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تَسَلْسُلُ الهدايات وتكامُل الرِّسالات

لما كان مِن مقاصد هذه السّورة العظمى الإعلامُ بنَسْخِ الشَّرائع السّابقة كلِّها بشريعة هذا النَّبيِّ الخاتَم، المبعوثِ برسالَةٍ عامَّة للثَّقلين؛ أتى سبحانه بذِكْرِ نوح وإبراهيمَ وذريَّتِهما، مُبَيِّنًا ما أودَعَ في أعقابِهما مِنَ النُّبوَّة والكِتاب، ثُمَّ أرْدَفَهُ بأداةِ التَّراخي الدّالَّة على عظمة التَّرتيب وعلوِّ المنزلة، فقال: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾[1]؛ ليشير إلى استمرار موكب الرِّسالات، وتعاقُبِ الرُّسل واحدًا إثْرَ آخَرَ، فالآية الأولى إجمالٌ لامتدادِ النُّبوَّة في عَقِبِ نوحٍ وإبراهيمَ ﷺ، والثّانية تفصيلٌ لمَسيرَتِها حتّى بَلَغَتْ عيسى ﷺ؛ تمهيدًا لخاتِمَةِ الشَّرائع بشريعةِ مُحَمَّد ﷺ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَفَّيْنَا﴾: فعلٌ ماضٍ مضعَّف، وجذره اللّغويّ من: (قفو) أو (قفي)، وهو أن يَتْبَعَ شيءٌ شيئًا[2]، ومنه: القَفْوُ، فيقال: قَفَوْتُ أثرَه، أي: تَبِعْتُه، وسُمّيت قافيةُ البيتِ؛ لأنَّها تَقْفو سائرَ الكلام، أي: تتلوه، وتَتْبَعُ آخرَه، ومن هذا الباب أيضًا: القفا، وهو مؤخّر الرّأس والعنُق، كأنّه يقفو الوجهَ، ويَتْبَعُه مِن خلف[3]، والمعنى المحوريّ للجذر: هو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 304.
(2) الخليل، العين: (قفو).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (قفو)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قفي)، والهروي، الغريبين: 5/ 1571.

اللّحاق بخلفِ الشّيء مِن أعلاه، ومنه سمّي الذّنبُ والقفا والقافية؛ لاتّصالها بما يتقدّمها مِن خلف، ومن هذا البابِ قولُهُم: قفاهُ يقفوه، أي: تبعَ أثرَهُ مِن ورائه[1]، وهو معنى ﴿قَفَّيْنَا﴾ في النّصّ الكريم[2].

2) ﴿ءَاثَـٰرِهِم﴾: جمعٌ مكسّر، مفرده: (أثر)، وجذره اللّغويّ: (أثر)، ومعناه: بقيَّة ما يُرى من كلّ شيء، وهو أيضًا: الخبر، و"الهمزة والثّاء والرّاء له ثلاثة أصول: تقديم الشّيء، وذِكْرُ الشّيء، ورسمُ الشّيء الباقي"[3]، وأثَرُ الشّيءِ: أن يحصُلَ ما يدلّ على وُجودِه فعلًا، فالطّريق الذي يستدلّ به على ما تقدّم يُسَمّى أثرًا، ويُقال: خرج في إثْرِه، أي: بعدَهُ، وائتثَرَهُ وتَأثَّره: تَبِعَ أثره[4]، والمعنى المحوريّ: هو البقيَّة أو العلامة التي تبقى من جُرْمِ الشَّيء ثابتَةً خَلْفَه، كالآثار الباقية من الشّيء بعدَ زوالِه، ومِن هذا المعنى استُعْمِلَ أيضًا للدّلالةِ عَلى المجيءِ بَعْدَهُ زمنًا، أي: ما يلي الشّيءَ بعدَ انصرام وقْتِه، أو مرورِ أثره[5]، ومعنى ﴿قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم﴾ في الآية محلّ الشّاهد: أرسَلْناهُم واحدًا في إثْرِ واحدٍ[6] مُتَّبعين سبيلَهُم في الدّعوة والهداية[7].

3) ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾: مصدرٌ صِناعيٌّ، والجذر اللّغويّ مِنْهُ: (رهب)، ومنه: الرّهبة، يُقال: رهبتُ الشّيءَ أرهبُه، أي: خِفْتُه، وارْتَعَبْتُ منه، والتَّرهّب: الانكباب على التّعبّد والاعتزال للتّقوى والزّهد، والأصل في الرّاء والهاء والباء في أكثر تصاريفها: دلالَتُها على الخَوْفِ، ومنه: الرّاهب، وهو المتعبِّدُ في الصَّوْمَعَة، فإنَّ الّذي حَمَلَهُ على التّعبُّد خوفُه، والرَّهبة المخافَةُ مع التَّحرّز والاضطراب[8]، وقيل في تعريفِها: إنّها الإمعان في الهرَبِ والفرار من المكروه[9]، والرّهبة: خوف مقرونٌ بالعمَلِ، ومنه: الرّاهب، وهو عابد النّصارى، وسمّي بذلك

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قفو).
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 190.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أثر).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط، والزبيدي، تاج العروس: (أثر).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أثر).
(6) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 305.
(7) الخازن، لباب التأويل: 4/ 252.
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات: (رهب).
(9) ابن القيم، مدارج السالكين: 1/ 508.

لأنَّ الذي حمَلَهُ على الانقطاع إلى العبادةِ الخوفُ مِنَ اللهِ سبحانه[1]، ومعنى ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ في الآية الكريمة: اعتزالُ النّاسِ، والانقطاع للعبادَةِ، والتَّفرُّغ للطّاعةِ والتّقوى[2].

4) ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾: فعلٌ مزيدٌ على وزن (افْتَعَلَ)، مُسْنَدٌ إلى ضمير الجماعة، وجذره اللّغويّ: (بدع)، ومعناه: إيجاد شيءٍ لَم يكُن موجودًا من قبل، ومن هذا المعنى: أبدع اللّهُ السّماواتِ والأرضَ؛ إذْ لَم يكونا شيئًا، ولم يَخْطُر على بالِ أحَدٍ، والباء والدّال والعين: تدلّ تصريفاتُها على بَدْءِ الشّيءِ وصُنْعِه دون الاعتماد على مِثالٍ أو نَموذَجٍ سابِقٍ، والابتداع: إنْشاءُ عَيِّنَةٍ مِن غير تقليدٍ أو محاكاة[3]، والمعنى المحوريّ: إيجاد الشّيء جديدًا على غير أصلٍ سبَقَ له[4]، ومعنى ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ في الآية الكريمة: أحدثوها من عند أنفسِهِم، ولم يأذَن بها اللّهُ تَعالى في شَرْعِهِ.

5) ﴿رَعَوْهَا﴾: فعلٌ ماضٍ مسنَدٌ إلى ضمير الجماعة، والجذر اللّغويّ مِنْهُ: (رعي)، ومنه: الرّعاية، وهو النّظر إلى ما يصير مِن أمْرِ الرَّجُل، ورعى اللّهُ تَعالى فلانًا، أي: دعوتَ له بالحِفْظِ والرِّعايَةِ، ورعيتُ لَهُ عَهْدَهُ وحقَّهُ بعده أو فيما خلّف، أي: التزمتُ حِفْظَ ما عليهِ تُجاهَهُ، وأرعيتُهُ سَمْعي؛ إذا أصغيت إليه، وانتبهت لكلامه، والرّاء والعين والحرف المعتلّ له أصلان، أحدهما: المراقبة والحفظ، والآخر: الرّجوع، ومِنَ الأوّل قولهم: رعيتُ الشَّيءَ، أي: رقبته وراقبته، وورعيتُه؛ إذا لاحظته، وعُنيت به، مراعيًا أحواله[5]، والرّعاية والمراعاة تَعْنيان الانتباهَ لمَصالح الإنسانِ وتَدْبيرِ أُمورِهِ، والاهتمام بما يُحَقِّق خيرَهُ، ويَصونُه من الضّياع أو الضّرر[6]، ومعنى ﴿رَعَوْهَا﴾ في الآية الكريمة: لم يقوموا بما التَزَموا بهِ حقَّ القيامِ بها، ولم يحافظوا على واجِباتِها كما يَنْبَغي[7].

(1) الفيومي، المصباح المنير، والزبيدي، تاج العروس: (رهب).
(2) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 4/ 246.
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بدع).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بدع).
(5) الخليل، العين، وابن دريد، الجمهرة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (رعي، رعى).
(6) الراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رعى).
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 189.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تلقّي الرِّسالاتِ بـينَ صِـدْقِ الأوائـلِ وزيـغ المتأخّرين

يقول المولى سبحانه: ثمَّ أعقبنا على آثار أولئك المرسلين برُسُلٍ آخرين، فكان في طليعتِهم عيسى بنُ مريمَ ﷺ، وآتيناه الإنجيلَ كتابًا منزَّلًا بالهداية والنّور، وجعلنا في قلوبِ أتباعِهِ الأوائل - وهُم الحَواريّون - رقّةً تخشَعُ بها أفْئِدَتُهم، ورحمةً يسَعُ بها عطفُهم الخلقَ، غير أنَّ أُمَّتَهُ ابتدعوا رهبانيَّة لَم نَشرَعْها لَهُم، وإنَّما ألزموا أنفُسَهُم بها ابتغاءَ مرضاةِ اللّهِ تَعالى، فما وفَّوا بِما أوجَبوه على أنفُسِهم حقَّ الوفاء، فاستَحَقّوا الملام مِن وجهَيْنِ، أحدهما: ابتداعُهم في الدّين ما لَم يأذَن به اللّهُ تَعالى، والآخر: إخْلالُهُم بِما التَزَموا بِهِ زَعْمًا أنَّه قربة، فأكرَمْنا المُؤْمِنين الصّادقين مِنْهُم، فآتَيْناهُم أجْرَهُم، وأمّا أكْثَرُهم؛ فَحادوا عَنِ الحَقِّ، وكَذَّبوا، وخالفوا، وكَفروا برسالةِ مُحَمَّد ﷺ، فكانوا فاسِقين خاسِرينَ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالَةُ التَّعْبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ دون الواوِ في قوله: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾:

تـدرُّج الـهـدايـةِ في أطوارِ الدَّعوةِ وتربيَةِ الأُمَمِ عَبْرَ الزَّمانِ

اختيرت ﴿ثُمَّ﴾ دون الواو مع فعل التَّقْفيَة؛ لِما تُفيدُهُ ﴿ثُمَّ﴾ مِن التّراخي والمُهلة الزّمنيَّة؛ إشارةً إلى أنَّ إرسال الرّسل كان مُتَتابعًا على مهل في أطوارِ الدّعوة، وتدرُّج الهداية، لا على سبيلِ التّوالي المُتقارب كما توحي به الواو، في تعبير بليغ عن حكمة التّأنّي الإلهيّ في تتابع الرّسل، ومراعاة مُقْتَضى التّمهّل في تربيةِ الأمم، وتكميلها على مرِّ الزّمانِ[2].

التّنويهُ بمنزلةِ النّبيِّ الخاتَم ﷺ وشَريعَتِه

ولَمّا كان مِن مَقاصِدِ هذه السّورةِ العُظْمى الإعلامُ بنَسْخِ الشّرائع كلّها بشريعة هذا النّبيِّ الخاتمِ؛ جاء التّعبيرُ بحرف العطْفِ الدّالِّ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 188 - 189.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 167.

على التّراخي ﴿ثُمَّ﴾[1]؛ إشارةً إلى عِظَمِ الإرْسالِ وجلالةِ المُرْسَلين، وتنويهًا برفيعِ مَنْزِلَتِهم.

دلالة التّعبيرِ بـ ﴿قَفَّيْنَا﴾:

تَتابُعُ الرُّسُلِ عَلى الأَثَـرِ يَحْمِلونَ نورَ الهِدايَةِ

معنى فعل ﴿قَفَّيْنَا﴾: أتْبَعْنا، وعقَّبنا، فأصلُ التّقفية للشّيءِ: اتِّباعُهُ لغَيْرِه ومَجيئُهُ على إثْر ما قَبْلَهُ، كأنّه يُقفى، ويُتْبَع أثرُه، فالأنبياء والرّسل ساروا على هذا الأسلوب، فاللّاحقُ منهم يقفو أثرَ السّابق، ويسيرُ على طريقه؛ إذ كانوا جميعًا على طريقِ اللّهِ تعالى يَحْملون نورَ الهدايةِ[2]، فالمراد بـ: ﴿قَفَّيْنَا﴾ متابعةُ أثَرِ مَن سبَق من الرُّسل بعد أن مَضى زمَنُه، فيُرْسِلُ اللّهُ تَعالى كلَّ رسولٍ بعدَ سابِقِه في سياقٍ متتابعٍ حتّى انتهى إلى أيّام عيسى عليه السلام، فأرسلَهُ اللّهُ تَعالى بعدَهُم، وآتاهُ الإنجيلَ[3].

دلالَةُ التّعبيرِ بالفعل ماضيًا مضعّفًا:

تحـقُّـقُ إرسـالِ الرُّسل على وجهٍ متتابعٍ مكثَّفٍ يتـعـاقَـبُ فيه الـرُّسُـلُ بعهد النُّبوّة

استُعمِل الفِعْلُ الماضي ﴿قَفَّيْنَا﴾؛ للتّأكيدِ على أنّ إرسالَ الرّسلِ المُتَعاقِبين هو سنّةٌ إلهيّة محقَّقة وثابتة قَد وقعَت في الأُمَم السّابِقَة، ممّا يُعطي الخبرَ صفةَ اليقين، وأنَّهُ حقيقةٌ لا تقبَلُ الشّكَّ.

والتّضعيف في الفعل ﴿قَفَّيْنَا﴾ يدلُّ على التّتابع والتّكثيف والتّكرار والتّعزيز، أي: أرسلنا رسولًا يتبَعُ رسولًا من غير انْقطاع، فجاء كلٌّ مِنْهُم يتبَعُ الآخَرَ، ويَقْفوه[4] مؤيِّدًا لِمَن قبلَهُ، موصولًا بِعَهْدِ النّبوّة، في سِلْسِلَةٍ متلاحقة مِن الهداية والرّحمة.

دلالَةُ إسنادِ الفعل إلى ضمير العظَمَةِ:

تـعـظـيـمُ شـأنِ الإرسالِ والمرسِلِ والمرسَلينَ

أُسْنِدَ فعل التَّقفية ﴿قَفَّيْنَا﴾ إلى ضمير العظمةِ (نا)؛ لإفادَةِ تعظيمِ هذا الجنْسِ مِنَ الإرسالِ، وتفخيم شأن المُرْسَلينَ، وفيه أيضًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 304.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 792.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 473.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 538.

دلالةٌ على علوّ شأن الفاعِل، وهو اللّه تعالى، فجاء ضميرُ العظمةِ مشيرًا إلى جلال اللّه تَعالى وعظمته، بما له من السّلطان والحكمة التي تفوق الوصفَ[1].

دلالَةُ التّعبير بحَرْفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰٓ﴾:

من رحمة الله تعالى لعباده كثرةُ المرسلين لهدايتهم

﴿عَلَىٰٓ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على الاستِعْلاءِ، وأصل "قفّى على أثره" يدلُّ على قُرْب الماشي الثّاني مِن أثَرِ الأوَّل، أي: حضَر الماشي الثّاني قبل أن يزولَ أثَرُ الماشي الأوَّل، فشاع ذلك حتّى صار قولهم: (على أثَره) بمعنى بعدَه بقليلٍ أو متّصلًا شأنُه بشأنِ سابقِه[2]، فكان هذا إيماءً إلى كثرةِ الرُّسُلِ الذين أرسلَهُم اللّهُ تعالى إلى العبادِ لهدايتِهم.

رفعَةُ مَقامِ الرَّسُلِ وسموُّ الرّسالات المتعاقبَةِ

واستعمالُ حرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ يحملُ دلالةً تفوقُ مجرَّدَ التّتابُع؛ إذ يوحي الحرفُ ﴿عَلَىٰٓ﴾ بالاستعلاءِ المَعْنَويِّ، والمكانة الرّفيعة للرُّسُلِ، وأنّ الرّسل الجدد جاؤوا ليحلّوا محلّ من سبَقَهُم، حاملين مقامًا عاليًا من الهدى والنّور فوق ما تركوهُ مِن آثار، مؤكّدين بذلك هيمنةَ الرّسالة الجديدة وسموَّها على ما قبلها، مع كونها امتدادًا لها.

إفادةُ الاستعلاء والتّمام في تراكم الرّسالات على آثار السّابقينَ

وتعديةُ فعل ﴿قَفَّيْنَا﴾ بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ واردٌ لإفادة الاستعلاءِ والتّمامِ، فكأنّ إرسال الرّسل الجدُدِ جاء متراكمًا فوق آثارِ الرّسل السّابقين، ومتّجهًا لتحقيق غاية كاملة هي إتمامُ الدّين، وإظهارُ معنى الاستمرارِ التّكامليّ، والارتقاء فوق مسيرةِ الرّسالات السّابقةِ.

سِرُّ التّعبير بمفردة ﴿ءَاثَـٰرِهِم﴾:

استمرارُ الأثَرِ الظّاهِرِ في إرسالِ الرُّسُلِ وتتابُعِهِم

استُعْمِلَ مفردة ﴿ءَاثَـٰرِهِم﴾ دون طريقَتِهم أو هديهم؛ لأنَّ لفظ الآثار فيه تصويرٌ للاتِّباعِ المعنويِّ في صورةٍ حسّيَّةٍ، فالأثَرُ لا يَزال

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 305.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 420.

يُرى، أي: أرسلنا الواحدَ تِلْوَ الآخَر مِن غيرِ فاصلٍ زمنيّ طويلٍ، فقوله: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم﴾، أي: على آثار نوحٍ وإبراهيمَ ﷺ بزمَنٍ يسيرٍ[1].

دلالَةُ جَمْعِ ﴿ءَاثَـٰرِهِم﴾:

تـعـدُّدُ وجـوهِ الاتِّـبـاعِ في آثـار الرُّسُلِ

في التّعبير بالجمع ﴿ءَاثَـٰرِهِم﴾ دلالةٌ على تعدُّدِ وجوهِ الاتِّباع من أقوالٍ وأفعالٍ وسُنَنٍ، لا أثر واحد، وفي هذا الجمْعِ إشعارٌ بِشُمولِ الهداية واستمرارِ الرِّسالَةِ على مَساراتٍ مُتَعَدِّدة من ذُرّيَّةِ الأنبياءِ.

إشـعـارٌ بشُمولِ الأنبياءِ الأخيارِ، مِـــن نـــوحٍ وإبـراهـيـمَ ومَـن تقدَّمهم

والجمعُ دالٌّ أيضًا على أنّ الله تعالى أراد أن يشمل نوحًا وإبراهيمَ ﷺ ومَن مضى من الأنبياء[2]، فكان اختيارُ الجَمْعِ مبيِّنًا اتّصالَ دعوَةِ الرُّسُلِ وتتابعهم على طريق واحدٍ يشعُّ مِنْهُ نورُ الهدايَةِ.

وفيه أيضًا إشارةٌ إلى تعدُّد مَن سبَقَ مِنَ الرّسل، لا إلى نوح وإبراهيمَ ﷺ، ولا إلى الذّرّيّة المذكورة، فالجمعُ يُفْصِحُ عَن أنّ التّقفية كانت على آثارِ جماعَةٍ من الأنبياء ممّن مَضى قَبْلَ عيسى ﷺ، ويُؤكّد أنّ الضّمير لا يعود على الذّريّة[3]، بل على مَن تقدَّمهم مِنَ الرُّسُلِ.

دلالَةُ الإضافَةِ في ﴿ءَاثَـٰرِهِم﴾:

إفـــادةُ معنى الاخـتِـصـاصِ وتشريفِ المضافِ إليهِ

الإضافةُ في ﴿ءَاثَـٰرِهِم﴾ تدلُّ على معنى الاختصاصِ، فالرّسُلُ الذين يُقْتَفَى أثَرُهم هُم من ذريَّةِ نوح وإبراهيم ﷺ، والمعنى: ثمّ قفّينا على آثار هؤلاء الرّسل، وليس على آثار الذّريّة كلّها، فلا يصح أن يقال: قفّينا على آثار ذريَّتِهما بذُرّيَّتِهما؛ إذ يلزم حينئذٍ تعقيبُ الشّيء على نَفْسِه[4]، وفي الإضافةِ معنى التّشريفِ للمضافِ إليهِ، وأنَّ الرُّسُلَ اللّاحقينَ إنّما جاؤوا مقتَفينَ آثارِ أنبياءَ عظامٍ.

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 361.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 442.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 305.
(4) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 475.

دلالَةُ الإضافَةِ إلى ضَمير الجَمْعِ ﴿ءَاثَـٰرِهِم﴾:

تعظيمُ مقام النَّبيَّيْنِ الكريمَيْنِ: نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام

أضيفَ لفظُ الآثارِ إلى ضمير الجَمْعِ في قوله: ﴿ءَاثَـٰرِهِم﴾، مع أنَّ المذكورَ قبلَهُ مُثَنّى - وهو نوحٌ وإبراهيمُ عليهما السلام - ؛ إمّا لأنّ المثنّى يُعامل أحيانًا معاملةَ الجَمْعِ في الضّمائِر[1]، وإمّا أنّ أقلّ الجَمْعِ اثنانِ[2] ممّا يُضفي على الآية سعَةً في الاتِّباع، وتنوُّعًا في الآثارِ.

فضلًا عن أنَّ التّعبيرَ بالجمع فيه مَعْنى التّعظيم[3]؛ إذ جُعِلَ نوحٌ وإبراهيم عليهما السلام في مقام الجَمْعِ؛ لِما لَهُما من علوِّ المنزلة، وكثرة الفضائِلِ.

بلاغَةُ التَّعبير بجملة ﴿قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم﴾ عَنْ إرسالِ الرُّسل:

توالي الرّسُلِ مقتفين آثارَ مَن قبلَهُم

التّعبيرُ بجُمْلَةِ ﴿قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم﴾ يدلُّ على أنَّ اللّهَ تَعالى أرسَلَ الرّسل واحدًا في إثْرِ واحِدٍ بينَ ما لا يُحصى من الخلق مِنَ الكفَرَةِ، محروسين منهم في الأغلَبِ بِما تَقْتَضيه العظمَةُ، فلا يزولُ أثَرُ الأوّل حتّى يُرسَل الذي بعدَهُ في قَفاه، فكلُّ رسولٍ يَسيرُ بين يَدَيِ الذي بعدَهُ، واللّاحق يقفو أثر السّابق[4]، فهذا التّعبير يحمل معنى التّتبع الدّقيق، والتّعاقب الحكيم في إرسال الرّسلِ.

دلالَةُ الباءِ في قولِهِ: ﴿بِرُسُلِنَا﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِرُسُلِنَا﴾ صِلةٌ، و(رسل) مجرور لفظًا منصوبٌ محلًّا[5]، وقد جيءَ بالباءِ؛ لإفادة توكيدِ التَّقفيةِ وتعزيزِ اتِّباعِ آثار الأنبياءِ السّابقين وإرسالِ الرّسل.

دلالَةُ الإضافَةِ في قولِهِ: ﴿بِرُسُلِنَا﴾:

الانتسابُ إلى اللهِ تَعالى شرفٌ لا يُقادر

أضيفَ لفظُ الرُّسُل إلى ضمير العظَمَةِ (نا) في قولِهِ: ﴿بِرُسُلِنَا﴾؛ تعظيمًا للمضافِ وتشريفًا له؛ فكانَت الإضافةُ دالَّةً على شرفِ الانتسابِ

(1) مكي القيسي، الهداية: 11/ 7334.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 167.
(3) الكوراني، غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني، ص: 100.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 305.
(5) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 476.

إلى اللهِ تَعالى، فهُم حزبُ اللهِ تَعالى وخاصَّتُه، ممّا يوجِبُ تَوْقيرَهُم، ويُثْبِت أنَّهم تحتَ حمايةِ اللهِ تَعالى وعِنايَتِه، فهي إضافةٌ تدلُّ على الاصْطِفاء والتّكريم، فهُم رسلُ اللهِ تَعالى، وهو الذي يتَكَفَّل بِحِفْظِهِم ونُصْرَتِهم بما تَقْتَضيهِ العظمَةُ[1]، ولو كانوا وسط ألوفِ المُعانِدينَ.

دلالَةُ العَطْفِ بالواوِ في قوله: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾:

عُطِفَ قول الله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ بالواو؛ لأنَّه قد أُعيدَ فِعْلُ التَّقْفيَةِ في المعطوفِ؛ تأكيدًا للمعنى وتثبيتًا لَهُ، ولذا عُطف بالواوِ دونَ ﴿ثُمَّ﴾[2]، فالعطفُ بالواوِ يَحْمِلُ معنى التّتابع القريبِ قبل أن تزولَ آثارُ السّابقين وتدرس[3]، بخلاف ﴿ثُمَّ﴾ التي تفيد المهلة والزّمن بين الأحداث.

تثبيتُ المَعْنى وتأكيدُهُ، والإيماءُ إلى التَّتابُعِ القريبِ

سِرُّ إعادَةِ فِعْلِ التَّقفيةِ ﴿وَقَفَّيْنَا﴾:

أُعيدَ فعلُ التَّقفيةِ ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ مع سبْقِ ذِكْرِهِ في المعطوفِ؛ تأكيدٌ على المَعْنى وتثبيتٌ لَهُ[4]، في تعزيز دلالةِ تتابع الرّسل على آثار السّابقين، وتؤكّد أنَّ اللّه تعالى أرسلَ الرّسل على وجْهٍ مستمرٍّ متتابعٍ.

تثبيت لمعنى التّتابع الرّسالي وترسيخ لسنّة الإرسال الإلهي المتكرّرة

وقد خصّ اللّهُ تعالى عيسى ﷺ بالذِّكر؛ لكونِهِ أعظمَ مَن جاء بعدَ موسى ﷺ مِن أنبياءِ بني إسرائيلَ، وهوَ المؤيّد لَهُ في تجديدِ دينِه وتقريرِ شريعتِه، وكان الزّهد والرّأفة والرّحمة في تابعيهِ في غايَةِ الظّهور، مع أنّ ذلك لَم يَمنَعْهُم من القسوة النّاتجة عن طول الأمَدِ والإعراضِ عَن الآياتِ والكِتاب، فلمّا كان ذلكَ كذلكَ؛ أُعيدَ الفعلُ[5]؛ لتأكيد التّتابُع الإلهيّ للرّسلِ وإبرازِ المكانة الخاصّة لعيسى ﷺ في مسيرة الهدايةِ.

عيسى ﷺ أعظَمُ رُسُلِ بني إسرائيلَ بعْدَ موسى ﷺ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 305.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 168.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 305.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 168.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 305.

معنى الباءِ في قولِهِ: ﴿بِعِيسَى﴾:

توكيدُ بَعْثِهِ ورفعُ مكانتهِ في سلسلة الرِّسالة الإلهيَّة

الباءُ في قولهِ تَعالى: ﴿بِعِيسَى﴾ صِلَةٌ، والاسم العلَمُ (عيسى) مجرورٌ لفظًا منصوبٌ محلًّا؛ إذ هوَ مفعولٌ بهِ[1]، والمرادُ: توكيدُ الإخبارِ عَنْ بعْثَتِه، وبيانُ مكانتهِ في سلسلَةِ الرِّسالَةِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ(عيسى بن مريم):

تحقيقٌ لبشريَّته وتثبيتٌ لنُبوَّتِه

في التّعبيرِ بـ (عيسى بن مريم) دون (المسيح) تقريرٌ لأمرٍ عقديٍّ، فهو يربِطُ عيسى ﷺ بسلسلة الرّسل برابطةِ النّبوّة، وفيه تأكيدٌ على بشريَّتِه ومُعْجِزةِ ولادَتِه، وذلك ممّا يَقْطَعُ الطّريقَ على دَعاوى الألوهيَّة.

سِرُّ تخصيصِ عيسى بالذِّكْرِ:

امتدادُ الهدايةِ بين ذُرّيَّتَي إسحاق وإسماعيل ﷺ

خُصَّ عيسى ﷺ بالذّكر دون غيرهِ مِنَ الرُّسل؛ لأنَّه مِن أولادِ إسْحاقَ ﷺ، وبُعِثَ بعدَهُ محمّدٌ ﷺ مِن ولَدِ إسماعيل ﷺ[2]، فجاء ذِكْرُهُ لتوضيح التّتابُع الزّمنيِّ والمنزلة الخاصّة له، والإشارة إلى ارتباطِ الرّسالات، وامتداد الهدايةِ بين ذُرّيَّتَي إسحاقَ وإسماعيلَ ﷺ.

تشريفٌ لمكانَتِهِ وتكريمٌ لمقَامِهِ

وأيضًا فإنَّ في تخصيصه ﷺ بالذّكر تشريفًا لهُ وتكريمًا لمَقامِه[3]، ولِما لأمَّتِه من سعَةٍ وانتشارٍ بينَ الأمم[4]، فجاء ذِكْرُه منفردًا لبيانِ مكانتهِ الرّفيعَةِ، وعظمة بِعْثَتِه قبل النّبيِّ ﷺ.

تجليَةُ الحقِّ أمام مَن نَسَبوا إليهِ اتِّباعًا منفرِدًا عن سائرِ الرُّسُلِ

وخُصّ عيسى ﷺ بالذّكرِ أيضًا؛ لأنَّ السّياقَ يُخاطِبُ النّصارى الذين يَزْعُمون أنّهم أتْباعُ عيسى ﷺ، فجاء التّخصيصُ؛ تأكيدًا لمنزلتهِ ﷺ، وإبرازًا لعظمَةِ رسالته، ولإظهار الحقائق الإلهيَّة أمامَ مَن نَسَبوا إليهِ اتِّباعًا خاصًّا[5].

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 476.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 538.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 270.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 115.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 843.

ويجوز أن يكون قد خُصّ بالذّكر؛ لأنَّ رِسالَتَهُ كانَت آخِرَ الرّسالاتِ قَبْلَ رسالَةِ نبيِّنا ﷺ، مع ما تشْتَمِلُ عليهِ مِنَ التَّنويهِ ببِعْثَتِهِ والحديثِ عَن رسالَتِه ممّا يُعدُّ إرهاصًا ببِعْثَتِه ودعوةً لها[1].

التَّمهيدُ للبعثَةِ النَّبويَّةِ والإزهاصُ للرِّسالَةِ المحمَّديَّةِ

دلالَةُ إضافَةِ بُنوَّةِ (عيسى) إلى أُمِّهِ ﴿مَرْيَمَ﴾:

أُضيفَت بُنوَّةِ عيسى عليه السلام إلى أمّه مريمَ عليها السلام على العادة في الإخبار عنهُ منسوبًا لأمِّه[2]، فجاءت الإضافة لتأكيدِ براءتِهِ من دَعْوى الألوهيَّةِ، وبيان نَسَبِه الطّبيعيِّ إلى أمّه، ولتوضيحِ خصوصيَّة ولادتِهِ المُعْجِزَة، وعِظَم شأنِه بين الأنبياءِ دونَ الإخلالِ بعقيدَةِ النُّبوَّة.

تأكيدُ براءَتِهِ مِنْ دعوى الألوهيَّةِ

والإضافة أيضًا؛ لبيانِ وجهِ انتسابِهِ إلى إبراهيمَ عليه السلام، وأنَّه من ذرّية إبراهيم عليه السلام من جِهَةِ أمّه، وهو - أي: عيسى عليه السلام - آخِر مَن جاء قبل النّبيِّ الخاتم ﷺ، فكانَت الإضافة مبيِّنةً نسبَهُ المباركَ وعِظَمَ مكانَتِه، وتنويهًا بأنّ أمّته أولى الأمم باتّباعِ محمَّدٍ ﷺ[3].

بيان النّسب المباركِ وعظمَةِ المكانَةِ

دلالَةُ العَطْفِ بالواوِ في قولِهِ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ دالَّة على العطف[4]، وهي واردةٌ للتّقريب بين الأحداث، فتُعْطي معنى الاتّصال المباشِر، والارتباط الوثيقِ بينَ الموعظةِ والإكرامِ الإلهيِّ لعيسى عليه السلام، بخلاف (ثمّ) التي تدلّ على التّراخي الزّمنيِّ، وكذا الفاء التي تُفيدُ التّعقيبَ اليسيرَ من دون دلالةٍ على التّلاحم.

دلالةُ الاتِّصالِ بين الأحداثِ

سِرُّ التَّعبير بفعل الإيتاءِ ماضيًا دونَ الإعطاءِ:

آثر البيانُ القرآنيُّ فعل الإيتاءِ في قول الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ دون الإعطاءِ؛ لأنَّ الإيتاء في الاستعمال القرآنيِّ خاصٌّ بالعطاء الجليلِ ذي القَدْرِ والثَّبات، ولذا استُعْمِلَ مع الكُتُب المُنَزَّلة

اختِصاصُ الإيتاءِ في الاستعمالِ القُرآنيِّ بالأمْرِ المُعَظَّم الجليل

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1308.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 115.
(3) الشربيني، السراج المنير: 4/ 215.
(4) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 476.

كالقرآنِ الكريم والتَّوراةِ، واستُعْمِلَ أيضًا مع المُلْكِ والرَّحمة، بخلاف الإعطاءِ؛ فإنَّهُ يُستعمَلُ لِلشَّيْءِ القليلِ، ولم يَرِد الإعطاءُ مرادًا به الشَّيءُ الكثيرُ إلّا بقيدٍ ما يدلُّ على الكثرَةِ، ولمّا كان الإنجيلُ مِنَ الكتب الإلهيَّة المُعَظَّمة؛ سَلَكَ النَّظم القرآنيُّ مَسْلَكَهُ المعهودَ في التَّعبير عنهُ بالإيتاءِ؛ إظهارًا لعظيمِ مكانتِهِ وجليلِ قدرِه.

واستُعمِلَ الفعلُ الماضي ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾؛ لدلالَتِهِ على الإخبارِ عَن وُقوعِ الفِعْلِ قَطعًا وتحقُّقِهِ، وأنّ اللّه تَعالى قد أكرم عيسى ﷺ بما حَصَلَ له من أجْرٍ ونِعَمٍ.

دلالةُ إسْنادِ فِعْلِ الإيتاءِ إلى ضمير العَظَمَةِ:

إبـــرازُ عَـظَـمَـةِ الـفِـعْـلِ وجَـلادل الفاعلِ

أُسْنِدَ فعل الإيتاءِ إلى ضمير العَظَمةِ (نا) في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾؛ لإفادَةِ عظمةِ الفِعْلِ وجَلال الفاعِلِ، فالمعنى: أنَّ اللّه تعالى أكرمَ عيسى ﷺ بالإنجيلِ بما لَهُ سُبحانَهُ من قُدْرَةٍ وعظمَةٍ[1].

سِرُّ استِعمالِ مُفْرَدَة ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾:

الإنجيلُ مصدَرٌ للعِلْمِ والهدايَة

﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾ مشتقٌّ من النَّجْل، وهو الأصل الذي يُستخرَج منه العلومُ والحِكم، فكأنّ اللّه تعالى أخرجه لنَقْلِ الهدايَة، ونَشْرِ الحقّ، فهو مصدرُ عِلْمٍ ومعرفَةٍ وضياء، وورد أنّ النّجْلَ يدلّ على ما يُسْتَخْرَج، ويُسْحَب، مثل الماء الخارج من الأرض، فسمّي الإنجيلُ بذلك؛ لأنّه أخرَجَ به دارسًا مِنَ الحقّ عافيًا، وذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّه مشتقٌّ مِنَ النَّجَلَ، وهو السَّعَةُ، ومِنْ ذلكَ قولهم: طَعْنَةٌ نجلاءُ، أي: واسعةٌ، وسمّي الإنجيل بذلك؛ لأنَّهُ وسَّعَهُ عليهم نورًا وضياء[2]، فالإنجيلُ لفظٌ يُشير إلى الحكمةِ والمعرفة المستخرجةِ مِنَ الوَحْيِ، ونَشْر الهدايةِ بينَ النّاس، وتجلّي العِلْم الإلهيِّ على أيدي الأنبياءِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 305.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/ 5 - 6.

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡإِنجِيلَ﴾ دون الكتابِ:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ بـ ﴿ٱلۡإِنجِيلَ﴾ دون (الكتاب)؛ لأنَّ ﴿ٱلۡإِنجِيلَ﴾ أشدُّ تعيينًا للمطلوبِ من (الكتاب)؛ لكونِهِ لفظًا عامًّا يصدقُ على كثيرينَ.

مَعْنى الواوِ في قولِهِ: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

بيانُ إنعامِ اللهِ تعالى على عيسى عليه السلام وأتباعِهِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾، عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جملة ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾[1]؛ لِما بينهما من التَّوسُّطِ بين الكمالَيْنِ، وذلك أنَّ الجملتَينِ خبريَّتان، وبينهما مناسَبَةٌ لفظًا ومَعْنًى، فأمّا اللَّفْظُ فاشتراكُ الجملتين في الفعليَّة والماضَويَّةِ، واتِّحاد المسنَدِ إليه فيهما، وأمّا في المعنى؛ فإنَّهما واردتانِ في بيانِ إنعام الله تعالى على عيسى عليه السلام وأتباعِهِ.

سِرُّ التَّعْبير بفِعْلِ الجَعْلِ مادَّةً وصيغَةً:

أمْرٌ وترغيبٌ، ثمَّ خلْقٌ وتمييزٌ

جاءَ التّعبير بفعل الجَعْلِ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ﴾؛ للدّلالةِ على أنّ الله تعالى أودَعَها في قُلوبِهم بالأمْرِ بها والتّرغيبِ فيها، أي: أثبتها، وحثَّ عليها، ويحتَمِلُ أنَّ الجَعْلَ بخَلْقِها فيهم[2]، فكان فعل الجَعْلِ شاملًا الإيجادَ والتّثبيتَ للخَيْرِ في نُفوسِهم.

ويجوزُ أن يكون الجَعْلُ بمعنى التّصيير، أي: تحويل الشّيء من حالٍ إلى حالٍ، فيكون ما بَعْدَها مفعولًا ثانيًا[3]، أي: صيّرنا القلوبَ متّصفةً بهذه المعاني.

إلهامُ أتباعِ عيسى عليه السلام الترّاحمَ والتَّعاطُفَ

أو أن يكون الجَعْلُ بمعنى: وفّقناهُم للتّراحم والتّعاطُف فيما بَيْنَهُم، كما في شأنِ أصحابِ النّبيِّ ﷺ الذين كانوا رُحماءَ بينَهُم[4].

(1) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2404.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 485.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 115.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 213.

إظهارُ أثَرِ سيرة عيسى ﷺ في تهذيبِ النّفوسِ

ويجوز أن يكون مَعْنى فعلِ الجَعْلِ إظهارَ أثَرِ سيرة عيسى ﷺ في تهذيبِ نفوس أتباعه؛ إذْ إنَّ ارْتياضهُم بسيرته الرّقيقة الرّحيمةِ رسَّخَ في قلوبهم الرّأفة والرّحمةَ، وكان ذلك بجَعْلِ اللّه تعالى، أي: بتيسيرِهِ وتقديره؛ لأنّه أمَرَهُم بها، ويسَّر لَهُم التّخلُّق بها، فقد بُعِث عيسى ﷺ لمُعالجَةِ قَسْوَةِ القلوب التي استَحكَمَت في بني إسرائيلَ عَبْرَ أجيالٍ، كما وصفها اللّهُ تعالى بقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: 74][1].

دلالةُ إسنادِ فعل الجَعْلِ إلى ضمير العَظَمَةِ:

تعظيمُ فعل الجَعْلِ وفاعِلِه ﷻ

أُسْنِدَ فعلُ الجَعْلِ إلى ضميرِ العَظَمَةِ (نا) في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا﴾؛ تعظيمًا لفعْلِ الجَعْلِ وأثرِه، وتعظيمًا للفاعِلِ ﷻ[2]، فهي تفيد أنّ هذا الجعل كان بعظمةِ اللّهِ تَعالى وسُلْطانه، ممّا يُضفي على الفعلِ قوّةً وهيبةً، ويُبرز أنّ التّغيير في القلوبِ لَم يكُن معهودًا، بل أثرًا من آثارِ العزّة الإلهيّة والتّدبير الرّبّانيّ.

دلالة التّعبير بالظّرفية ﴿فِي﴾ دون (على):

تمكُّنُ الرّأفةِ والرّحمة في نفوسِهم

آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بحرف الجرِّ ﴿فِي﴾ الدّالِّ على الظرفيّة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً﴾؛ لتَصْويرِ تمكُّن الرَّأفة والرَّحمة واستقرارها في نُفوسِهم.

سِرُّ التَّعبير بالقلوبِ دون الأفئدة:

الإشارةُ إلى ثَباتِ الصِّفات واستِقرارها

في اختيار لفظ (القلوب) دون (الأفئدة) في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ إيحاءٌ بالثَّبات والاستقرار؛ إذِ القَلْبُ – على الرُّغم مِنْ تَقَلُّبه – قد يَثْبُت على الخَيْر والفَضيلَة، بخِلاف لفظ (الفؤاد)؛ فإنَّ فيه مَعْنى التَّوقُّد والعاطِفَة العارِضَة، ولذا جاء التَّعبير بـ (القلوب)؛ للإشارةِ إلى أنَّ هذهِ الصِّفات – وهي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 421.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 306.

الرَّأفة والرَّحمة - قَد استَقَرَّت، وأصْبَحَت سَجيَّة ثابتَةً في داخِلِ أتباعِ عيسى عليه السلام.

دلالَةُ التَّعبير بـ ﴿قُلُوبِ﴾ جمعًا مضافًا:

عُبِّرَ بلفظِ ﴿قُلُوبِ﴾ جَمْعًا دون المفرد؛ للدّلالةِ على انتِشار هذه الصِّفاتِ في قلوبِ الأتباعِ، ويُفيدُ الجَمْعُ أيضًا كثرةَ القلوبِ وتَفاوُتَها في القوّةِ والدّرجة، وكأنّ كلّ قلبٍ امتلأ بأنواعٍ متعدِّدة من المشاعر الرّحيمة، ممّا يجعل الصّورةَ حيّةً ومتجدِّدَةً تعكِسُ أثرَ النُّبوّة في نفوسِ الأتباع، وإضافتُها إلى الاسمِ الموصول ﴿قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ يدلُّ على العموم؛ إذ إنَّ الجَمْعَ المضافَ إلى معرفةٍ يُفيدَ الاستغراقَ.

إشعارٌ بالانتشارِ وتكثيرٌ في التّأثيرِ ودلالـــةٌ على العُمومِ

دلالَةُ التَّعبير بالاسْمِ المَوْصولِ وصلته:

استُعمِلَ الاسمُ المَوْصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ للدّلالةِ على العموم؛ لأنَّ الاسمَ الموصولَ يُفيدُ ذلك، وجاءت الصِّلةُ مبيِّنَةً لهذا العموم، وأنَّه ليس عمومًا في كلِّ فردٍ من أفرادِ العبادِ، بل هو عمومٌ لجميعِ أفرادِ مُتَّبعي عيسى عليه السلام، فكانت الصِّلةُ مفيدةً مزيدًا مِنَ التَّخْصيصِ والتّوضيح، فـ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ يُشير إلى جماعَةٍ مَعْلومَةٍ اتَّصفوا بالاتِّباع الحقِّ لعيسى عليه السلام، وفي ذلك بيانُ فضلهم، وإشعارٌ بأنّهم أهلٌ لهذهِ النّعمَةِ الإلهيَّة.

استِقــرارُ الأوْصــافِ الحسَنَةِ في جَميعِ أتباعِ عيسى عليه السلام

وفي التَّعبيرِ بالموصول وصلته ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ بدلًا من (أتْباعه)؛ للإشعارِ بأنَّ جَعْلَ الرّأفة والرّحمة في قلوبهم كان إحسانًا وتفضُّلًا من الله تعالى؛ بسبَبِ اتِّباعِهم نبيَّهم عيسى عليه السلام والانقطاع التّامّ إليه والمواظبة على هَدْيِه[1]، فجُعِلَت الصّلة معيارًا هو الذي رُبِطَ به الحُكْمُ، ونالوا بهِ هَذا الفَضْلَ.

الرّأفة والرّحمةُ ثمرَةُ الاتِّباعِ الحقِّ لنبيِّ الله تعالى عيسى عليه السلام

دلالَةُ التَّعْبير بالاتِّباع دون الإيمانِ:

عُبِّر بالاتِّباع دونَ الاكتفاء بالإشارةِ إلى الإيمان؛ لأنّ الاتِّباعَ دالٌّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 423.

كـمـالُ الإيـمـان بـالاتِّـبـاعِ الحَقِّ لِمِنهاجِ النُّبوَّة

على كمال الإيمانِ؛ فهو دالٌّ على الإيمان القلبيِّ مع العمل الصّالِحِ، فجَعَل اللّهُ سُبْحانَهُ النّعمةَ معلّقة بالمواظبة والسّيرِ الدّؤوب على المناهجِ النّبويّة، بما يشمَلُ غاية الجُهْد[1]؛ ليعلن أنّ الاستحقاقَ ليس لمن ادَّعى، بل لِمَن انقادَ، واقْتَفى.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾:

تـأكـيـدُ وُقـوعِ الفِعْلِ وتحقُّقِه واستقرارِه

الفِعْلُ ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾ فعل ماضٍ، والواوُ: ضميرٌ متَّصل في محلِّ رفعٍ فاعلٌ، والهاء: في محلِّ نصبٍ مفعولٌ بهِ[2]، واستعمالُ الفعلِ هنا ماضيًا فيه تأكيدٌ على وُقوعِ الفِعْلِ وتحقُّقِهِ واستقرارِهِ.

دلالةُ الإضمارِ في ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾ دونَ الإظْهارِ:

رشـاقـةٌ في الـتّـعـبـيرِ، ووضـوحٌ في التّفسير، وإشارةٌ إلى عـيـسى عليه السلام بلا تَكْريرٍ

جيءَ بالضَّمير (الهاء) في قوله تعالى: ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾ دون أن يُظْهَرَ، فلم يَرِدِ البيانُ القرآنيُّ: (اتّبعوا عيسى)، وذلك لتجنُّب التّكرارِ والإطنابِ، فجاء اللَّفْظُ موجزًا ومؤكِّدًا للمعنى، مع الإشارة إلى أنّ المتبوع هو عيسى عليه السلام.

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿رَأْفَةَ﴾ نكرة:

الـدّلالَـةُ على شـدّةِ الـرّأفَـةِ وفائِضِ الرَّحْمَة في قـلـوبِ أتـباعِ عيسى عليه السلام

نُكِّرَ لفظُ ﴿رَأْفَةَ﴾؛ للدّلالةِ على التَّعظيم والتَّفخيم، فهي تُفيدُ شدَّةَ الرّحمة[3]، وواسع الرأفة، وهذا يُبْرِزُ أثرَها العظيم في القلوبِ، ويدلُّ على أنّ الله تعالى ألهمَ أتباعَ عيسى عليه السلام رأفَةً وتراحُمًا يفوقُ الوَصْفَ.

دلالَةُ عطفِ (رَحمَة) على ﴿رَأْفَةَ﴾:

الجَمْعُ بين لُطْفِ المعاملة ورحابةِ القَلْبِ في وصفِ الأتْباعِ

لَمّا كانت الرّأفةُ تدلّ على اللّين واللّطف في المعاملة، والرّحمة والشّفقة والرّحابة في القلب[4]؛ عُطِفت الرَّحمةُ على الرّافةِ؛ ليُجْمَع بين المَعْنَيَين، ويُظهر الصّورة الكاملة لِما وهبه اللّهُ تعالى لأتباع عيسى عليه السلام من مكارمِ الأخلاق، وفيضِ العِنايَةِ الإلهيَّة في القلوبِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 306.
(2) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2404.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 202.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 484.

والمراد من الرّأفة دفعُ الشّرّ، ومن الرّحمة جلبُ الخير[1]، فجاء العطف ليُظهر شموليَّة الفعلِ الإلهيِّ في القلوبِ، وكانَ في اجتماع الرّأفة والرّحمة دلالةٌ على مَنْعِ الضّرر وإدخال النّفع، وبيانٌ للكمال الأخلاقيِّ، الذي غرسه اللّهُ تَعالى في نفوس أتباع عيسى عليه السلام.

دفعُ الشّرّ وجلبُ الخَيْرِ

ولما كانت الرّأفةُ هي الرّحمةَ المتعلّقةَ بدَفْعِ الأذى والضّرّ، فهي رحمةٌ خاصّةٌ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: 143]، وكانت الرّحمةُ هيَ العطفَ والملاينَةَ - كما في فاتحة الكتاب - جاء عطفُ الرّحمة على الرّأفة من عطف العامّ على الخاصّ؛ لاستيعاب جميعِ أنواعِهِ بَعْدَ أن وقع الاهتمامُ ببَعْضِها[2].

الرّأفة والرّحمةُ يُجَلّيانِ كمالَ الفَضْلِ وصنوفَ الإحسانِ

وفي العَطْفِ معنًى آخرُ، وهو أنّ الجمع بين الوصفين واردٌ؛ لإفادة أنَّ اللّه تعالى يرحم بالرّحمة القويّة مَن يستحقّها، ويرحم بمطلق الرّحمةِ مَن دونَ ذلك[3]، فجاء العطف؛ ليُبْرِز تدرُّج الرّحمة الإلهيَّة، وشموليَّتها في التّعامُلِ مع خَلْقِهِ.

التّدرُّجُ في الرّحمة الإلهيّةِ بينَ مَن يَسْتَحِقّ كمالَها، ومن ينالُ دون ذلكَ مِنْها

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ يحتَمِلُ أن تكونَ دالّة على الاستئنافِ، ولفظُ (رهبانية) منصوب بفعل مضمرٍ يدلّ عليه ما بعده، والمعنى: وجعلنا في قلوبهم رأفةً ورحمةً، وهم ابتدعوا رهبانيَّة من أنفسهم[4]، فيكون قوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ من باب الاشتغالِ، وكانَت الواوُ فاصلةً بين ما أنزلهُ اللّه تعالى مِن صفات القلْبِ، وما أحدثه النّاسُ من بدعٍ، ممّا يؤكّد أنّ الرّهبانية ليست من الدّينِ بَل مِن ابتداع البشَرِ.

أثَرُ الإعرابِ في اختِلافِ المَعاني وتنَوُّعِها

ويحتَمِلُ أن تكون الواوُ عاطفة، والجعلُ في هذه الآية بمعنى

(1) المراغي، تفسير المراغي: 27/ 183.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 421.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 25.
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 254.

الخلقِ والإيجادِ[1]، "وإنّما عطفت هذه الجملة على جملة: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾؛ لاشْتِراك مضمون الجملتينِ في أنّه مِن الفضائلِ المراد بها رضوانُ اللّهِ تَعالى، والمعنى: وابتدعوا لأنفسهم رهبانيَّة ما شَرعْناها لَهُم، ولكنّهم ابتَغَوا بها رضوانَ اللّهِ تَعالى، فقَبِلَها اللّهُ تَعالى مِنْهُم؛ لأنّ سياقَ حكايَةِ ذلكَ عَنْهُم يَقْتَضي الثّناءَ عليهم في أحوالِهِم"[2].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالرّهبانيَّةِ دونَ العبادةِ:

عُبِّرَ بالرَّهبانيَّة دون العبادة؛ لأنّ الرّهبانيّة تدلّ على الأمور التي تَحْمِلُ على الرّهبنَةِ والعمل بموجبها والخوفِ والانقطاعِ والهَرَبِ مِنَ الدُّنْيا، وهو ما ابْتَدَعَهُ أتباع عيسى ﷺ زيادةً على المشروعِ[3]، بخلافِ العبادةِ فإنَّها أعمُّ وأشمَلُ، وليس فيهِ دلالةٌ على مَعْنى الانقطاع والرّهبَةِ الخاصَّةِ، ففي التَّعبيرِ بها دلالةٌ على حالٍ خاصَّةٍ من الخوف والانقطاع المبالغ فيه.

تصويرٌ لحالِ الانقطاعِ والخوفِ والمبالغةِ التي ابتدَعَها الأتباعُ

أثَرُ الاشتقاقِ مِنْ مادَّةِ (رهب) عَلى المَعْنى:

اشتُقَّ لفظُ الرّهبانيّة من مادة (رهب) الذي يدلّ على الخوف الشّديد، فالرّهبانيَّةُ: العبادَةُ النّاشِئَة عن خوفٍ مُفْرِطٍ شديد، وسُلوكٍ غالٍ، ممّا يجعلها انحرافًا عن الاعتدال الذي أمَرَ به الشّرعُ، والمعنى: أنّهم بالغوا في الخوف حتّى أوصلهم إلى ابتداعِ عِباداتٍ شاقَّةٍ لَم يَشْرَعْها اللّهُ تعالى، فكان الاشتقاقُ لفظًا ومعنًى موحيًا بعلّة النّهي عَنِ الغلوّ في الدّين، كما قال تعالى: ﴿لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: 171][4].

الخوفُ الشَّديدُ يَعْكِسُ غُلوَّهُم وابتِداعَهُم

سِرُّ التّعبيرِ بالرّهبانيَّةِ دون الخَوْفِ:

عُبِّر بالرّهبانية دون الخوفِ؛ لأنَّها وإن كانت مأخوذةً من

الرّهبانيَّةُ أخصُّ من الخَوْفِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 270.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 423.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19306.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 540.

الرّهبة، وهي الخوفُ، إلّا أنَّها أخصُّ مِنْهُ؛ إذ هي الخوفُ الشّديدُ الذي يبلغ حدًّا ينقَطِعُ فيه الإنسانُ عَنِ النّاس، ويَنْفَرِدُ لِلعبادة[1]، بخلاف مُطْلَقِ الخوف الذي لا يستلزم الانقطاعَ والانفرادَ.

بلاغةُ المَجازِ بالحَذْفِ في لفظِ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ مجازٌ بالحذف؛ إذ قُدِّر مُضافٌ، والتَّقدير: وجعلنا في قلوب الذين اتَّبَعوهُ رأفةً ورحمةً وحُبَّ رهبانيَّةٍ مبتدعَةٍ لَهُم[2].

دلالَةُ التّعبير بفِعلِ الابتداع:

الإحْداثُ لا على مِثالٍ سابقٍ

عُبِّرَ بلَفْظِ الابتداعِ دونَ لَفْظِ الإحداث؛ للدَّلالةِ عَلى أنَّ ما قاموا بهِ؛ لَم يَفعَلْهُ السّابِقونَ، فقد أحدثوهُ لا على مثالٍ سابقٍ، فهذا اللّفظُ يُضْفي دلالةً أعمقَ من الإحداث؛ إذ يؤكّد أنّ الرّهبانيّة هي زيادة مبتكرة كلّيًّا وُجدت بعد صاحبِ الشّريعة، وهي خارجَةٌ عن مَنْهَجِه[3]، ممّا يرسِّخ كونها اجتهادًا بشريًّا غاليًا لَم يشرعْهُ اللّهُ تَعالى لَهُم.

دلالةُ التّعبير بالإضمارِ في ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾:

اختلاف درجاتِ الوِزْرِ بين المُبْتَدِعِ حقيقةً وبين المتابِعِ لَهُ

أُضْمِرَ الفاعل في قوله تعالى: ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾، والمرادُ به أتباعُ عيسى عليه السلام، ولم يُصرَّح به؛ للإشارةِ إلى أنّ الرّهبانيّة لم تكن مِن شَريعتِه، بل مِن ابتِداع أتباعِه، وليُحمّلهم وزر الابتداع على وجه الإجمالِ، مع اختلاف درجات وِزْرِهم بين المُبتَدِعِ حقيقةً والمتابعِ لهُ، ثمّ يُفهم من السّياق أنّ أعلاهم منزلةً هُمُ الذين انقَطَعوا للعبادَةِ، واهتَدوا بسيرتِه[4]، فجاء التّعبير بالإضمار؛ ليجمع بين التَّعميمِ في الذَّمِّ، والتّلميح إلى تفاوُتِ مَراتِبِهم.

(1) الهمذاني، الكتاب الفريد: 6/ 107.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 190.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 422.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 423.

سِرُّ فَصْلِ جملة ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ عمّا قَبْلَها:

فُصلت جملة ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ عن سابقها؛ لتُبرز استقلال المعنى، وتُشدِّد على نفي التّشريع الإلهيِّ للرّهبانيّة، فجاءت استئنافَ إخبارٍ بذلكَ[1]، فهي تُؤكِّدُ أنَّها ليست من الدّين المُنَزَّل، بل من ابتداعهم، فكان الفصلُ أبلغ في التَّبرُّؤ منها، وأقوى في إظهار أنّها ليست ممّا كُتِبَ عَلَيهِم.

استقلالٌ مؤذِنٌ بتأكيد نفي التّشريع الإلهيِّ للرّهبانيّة

ويَحْتَمِلُ أن تكونَ الجملةُ فُصِلت؛ لكونِها مبيِّنَةً لجُمْلَةِ ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾[2]؛ لبيانِ أنّ ما ابتدعه النّاس لم يكن من عنده تعالى، ولم يُفرَض عليهم، فهي تأكيد على أنّ الرّهبانيّة كانت اجتهادًا بشريًّا محضًا.

دلالَةُ نَفْيِ الكِتابَةِ في قولِهِ: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا﴾:

نفيُ الكتابةِ في قوله تعالى: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ نفيٌ لتشريعِها في جميع الأوقات، قبل ابتداعِهم لَها وبعدَهُ[3]، فلم تكن في أصل الشّرع مفروضَة، ولم تُقَرَّ بعدَ ابتِداعِهم على الرّغم مِن تَحَمُّلِهِم المشقَّةَ، ونفي الكتابةِ مُشعِرٌ بأنَّ الرَّهبانيَّةَ لو كانَتْ مِنْ عند اللّهِ تَعالى؛ لكان لها ذِكْرٌ في كتابِهِم المُنَزَّلِ على نبيِّهم عيسى ﷺ، فلمّا لم تكن كذلك؛ عُلِمَ أنَّها مُبتدعةٌ مُحدثَةٌ.

نفيُ كونِ الرَّهبانيَّةِ مِنْ عند اللهِ تَعالى وشرعِهِ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالكِتابَةِ دون الفرضِ:

عُبِّر بالكتابةِ؛ لأنّها في لسان الشّرع تفيد التّقدير والإلزام والإثباتَ، فهي أبلَغُ مِن مجرّد الفَرْضِ، وهي تَشْمَلُ القضاءَ الكونيَّ، والتّكليف الشّرعيَّ[4].

شمولُ الكتابةِ للقضاءِ الكونيِّ والتَّكليفِ الشَّرعيِّ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿كَتَبْنَاهَا﴾:

قوله تعالى: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا﴾ فعل ماضٍ، و(نا) فاعله[5]، والتّعبير

حَسْمٌ وقَطْعٌ في نفي تشريعِ الرَّهْبانيَّةِ

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 18/ 505.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 423.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 485.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 270.
(5) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2404.

بالفعل الماضي منفيًّا يُضفي على المعنى طابَع الحَسْم والقطع؛ إذْ يدُلُّ على نفيٍ قد استقرَّ، وانتهى، لا مجال لمراجَعَتِهِ أو الشّكِّ فيه، فالرّهبانيّة ليست من أصل التّشريع، بل هي خارجَةٌ عَنْهُ، فكان استعمالُ الماضي أبلَغَ في بيانِ البَراءَةِ الإلهيَّة.

دلالَةُ التَّعبير بالإضمارِ في قولِهِ: ﴿كَتَبْنَٰهَا﴾:

عُبِّر عن الرَّهبانيَّةِ بالإضمار في قوله تعالى: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾؛ لقُرْبِ العَهْدِ بها، ولعَوْدِ الضَّمير قبلَها عليها في قوله: ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾، فأُجْرِيَ هذا الموضعُ على الإضمار على نسَقِ الذي قَبْلَهُ، ولأنَّ الإضمارَ أخصَرُ من الإظهارِ مَع دلالتِهِ على المرادِ من غير لَبْسٍ.

بلاغةُ الاحتراسِ في قولِهِ: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾:

قول اللّهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ واردٌ على جِهَةِ الاحتراس[1]؛ لأنَّ ذِكر ابتداعِهِم الرَّهبانيَّةَ مع زيادةِ التَّنصيص على أنَّ اللّه تَعالى لم يَشْرَعها في كتابٍ، يوهِمُ أنَّهم ابتدعوا ذلك على سبيلِ المحادَّةِ والعنادِ، فجاء دفعُ هذا الوهم بقوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾؛ لبيانِ أنَّهم ألزموا بها أنفُسَهم، وقصدُهُم بذلك رضا اللّه تعالى[2].

دَفْعُ تَوَهُّم عِنادِهِم ومُحادَّتِهِم للشَّرع المُنَزَّل

دلالةُ الاستثناءِ بـ ﴿إِلَّا﴾:

الاستثناءُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثناء منقطع[3]، واستعمالُ ﴿إِلَّا﴾ هنا أبلغ من استعمال (لكن)؛ لأنّ ﴿إِلَّا﴾ تحمل في طيّاتِها معنى الفَصْلِ والانقطاع مع بقاء الصّلة اللّفظيَّة، فجمعَت بين قوَّة الرّبط ومُغايَرَة المعنى، بخلاف (لكن) التي تُفيد الاستدراكَ، والاستثناء المنقطعُ هنا يُفيد أنّ ابتغاء الرّضوان ليس ممّا كُتِبَ عليهِم، وإنَّما هو الدّافع الذي حَمَلَهُم على الابتداع، فكأنّ

استثناء منقطعٌ يبيِّنُ التَّمايز بين الإخلاصِ والابتِداعِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 423 - 424.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 842.
(3) النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 311.

المعنى: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾، لكنّهم فعلوها؛ طلبًا لرضوان الله تعالى، فجاء الاستثناء لبيان علّة فِعْلِهم معَ تأكيدِ عدَمِ شَرْعيَّتِها[1].

انـدِراجُ أصلِ الرّهبانيّة في القُرُباتِ مَعَ بقاءِ صورَتِها بدعَةً مُحْدَثَةً

ويجوز في الاستثناءِ هنا أن يكون متّصلًا، أي: ما كتبناها عليهم في أصلها، إلّا من جهة اندراجها في عموم المندوباتِ، كابْتغاء رضوان الله تَعالى بالنّوافل، وهو مكتوب على كلّ أمّة، فدلّ التّعبيرُ على أنّ أصل الرّهبانيّة قد يندرج ضمن ما يُحبّب مِنَ القربات، وإن كان ابتداع صورَتِها مِن عندِ أنْفُسِهم، فاجتمع في التّعبير نفيُ الإلزام وإثباتُ المقصدِ الحسَن[2].

بلاغَةُ التّعبير بالجُمْلَةِ الاعتراضيَّة ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾:

الكَشْفُ عَن صفاءِ القَصْدِ وإظهارُ كمالِ رحمةِ الله تعالى بالعبادِ

جاءَ قول الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ على وجْهِ الاعتراض[3]؛ إذ اعترضت بين أفعالهم ومآلِها؛ لتكشف عن صفاءِ مقصدهم، فصيغ الاستثناءُ في أسلوب الاعتراض ليُشعر بأنَّ ترك فرض الرّهبانيَّة لم يكن زهدًا فيها، بل رأفةً بهم ورحمةً من الله تَعالى[4].

بلاغَةُ التّعبيرِ بالابْتِغاءِ:

دلالةُ الابتغاءِ على شدَّةِ السَّعْيِ وجِدّيَّة القَصدِ في تحصيلِ الرّضا الإلهيِّ

جاء التّعبيرُ بالابتغاءِ دون الطّلبِ؛ لِما في مادَّة الابتغاءِ من دلالةٍ على السَّعْيِ الحَثيث، والجُهْد البالغ في تحصيل الغايةِ، فَهو أعمَقُ من مُطلَقِ الطّلَبِ؛ إذ يوحي بتكلُّفِ المشقَّةِ في سبيل بلوغ الرّضا الإلهيِّ، وتصميم النّفس على تزكيةِ العَمَلِ[5].

سِرُّ التّعبيرِ بالاسمِ ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾:

دلالةُ المصدرِ على ثبات النّيَّة ودوام الحال في السّعي نحو القبول الإلهيّ

استُعمِلَ الاسمُ ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ دون الفعل (يبتغون)؛ لِما في الاسم من دلالةٍ على الثُّبوت والرّسوخ، لا الحدوث والتَّجدُّد؛ فاختيار المصدرِ

(1) الطوفي، الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، ص: 627.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 270.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 424.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 307.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 307.

يوحي بأنّ ابتغاء رضوان الله تَعالى كان غاية راسخةً في نفوسِهم، لا أمرًا عارضًا، وكأنَّ الرَّغبة في مرضاته صارت لهم حالًا دائمة وهيئةً مستقرّة، فعُبِّرَ بالاسمِ لإفاضةِ السُّكونِ والثَّباتِ على المعنى[1].

أثر تعدُّدِ الموقع الإعرابيّ لقوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾ على المَعْنى:

انفِصالُ الرِّضا عَمّا قبلَهُ مِنَ الرَّهْبانيَّةِ المُبْتَدَعَة

يجوز في لفظِ ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾ أن يكون منصوبًا على الاستثناءِ، فيَتَضَمَّن معنى الانفصالِ عمّا قبلَه مِن الأعمال المبتدَعَة، وفي الوقت نفسهِ يجوزُ أن يكون بدلًا من المُضْمَر، أي: ما كَتَبْناها عليهِم إلّا أن يَبْتَغوا رِضا المولى سُبْحانَه[2].

رضوانُ اللهِ تَعالى هو غايتُهُم المقصودَةُ مِنَ الرَّهبانيَّة

وتعدُّد الموقع الإعرابيِّ للفظِ ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾ يُثْري المَعْنى، فبِنَصْبِه على المفعولِ بِهِ يكونُ طلَب الرّضوان هو الغايَة التي مِن أجْلِها كَتَبوا الرّهبانيَّة على أنفُسِهم، وبنَصْبِه على المفعول لأجله يُصْبِحُ الدّافع الباطنيُّ هو المحرّكَ لابتداعهم، وهذا يؤسِّس لمسألة شرعيَّة مهمَّة، وهي أنَّ الأعمال المباحة يُؤجَرُ عليها صاحبُها؛ إذا قَصَدَ بِها طاعةَ الله تعالى[3].

بلاغَةُ الإيجازِ بالحذفِ:

رهبانيَّةٌ لم تُشْرَعْ، ولكنّها أُحْدِثَت طلبًا لرضوانِ اللهِ تَعالى

في قول الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ إيجازٌ بالحذف، سواءٌ أكانت الجملةُ استثناءً منقطعًا، أم بدلًا من الضّمير المنصوب، والتّقدير: ما كتبناها عليهِم، لكِنْ فَعَلوها، أو ابتَدَعوها لابتغاءِ رِضْوانِ اللهِ تَعالى[4]، وهذا التَّقديرُ متعيِّنٌ، وإلّا نقضَ آخرُ الكلامِ أوَّلَهُ؛ إذ إنَّ اللهَ تَعالى نصَّ على أنَّهم أحدثوها، وابتدَعوها، وهذا يتنافى مع كَتْبِها عليهِم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 307.
(2) النحاس، إعراب القرآن: 4/ 245.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 424.
(4) الهمذاني، الكتاب الفريد: 6/ 108.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿رِضْوَٰنِ﴾:

طَلَبُهُم غايَةَ الرِّضا ومُنْتَهاهُ

آثر البيانُ القرآنيُّ اختيارَ لفظِ ﴿رِضْوَٰنِ﴾ بدلًا من (رضا)؛ لتصويرِ عِظَمِ المقصودِ وسموِّ الباعثِ، وأنَّ مرادَهُم هو طلبُ الرِّضا العظيم[1]؛ وذلك لأنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى غالبًا، فالرِّضوانُ أدلُّ على عِظَمِ الرِّضا وجلالتِهِ من لفظ (الرِّضا).

دلالَةُ إضافَةِ ﴿رِضْوَٰنِ﴾ إلى الاسمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

عَظمةُ الرِّضوانِ وفَخامَتُهُ

أُضيفَ لفظُ ﴿رِضْوَٰنِ﴾ إلى الاسْمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تَعالى: ﴿رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾؛ تعظيمًا للرِّضوانِ وتفخيمًا لَهُ؛ إذ هو صادرٌ ممَّن جمعَ صفاتِ الجلال والجمال والكمال، فهو رضًا عظيمٌ يتناسب مع جلالِ مَن أُضيفَ إليه، وهو ملك الملوكِ الأعظم[2].

معنى الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾:

الـرَّبْـطُ بـينَ الابـتـداعِ والـتَّـفـريـطِ في العَمَلِ

الفاء في قوله: ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ عاطفةٌ[3]، تربطُ بينَ ابتداعِهِم الرّهبانيَّة دون أن تُكْتَب عليهم، وبين تَقْصيرِهِم في رِعايَتِها، وهي تفيدُ التَّرتيبَ والتَّعقيبَ مع ما فيها مِن معنى السَّببيَّةِ، فتدلُّ على أنّ عدم رعايَتِهِم للرّهبانيّةِ كان نتيجةً مباشرةً لمَشَقَّة التزامِها، فترتَّب على ذلك أنّهم لم يُحْسِنوا رعايتها، فأضاعوا شُؤونَها، وسَفَلوا مِن عَلْيائِها[4].

ومعنى التّفريع في الفاء: أنّ عدم رعايَتِهِم للرّهبانية حقّ رعايَتِها جاء مُتَرَتِّبًا على ابتداعِهِم لَها دون أن تُكْتَبَ عليهم[5]، فالفاء تربط بين الابتداع غير المشروعِ وبين التّقصيرِ في العَمَلِ؛ لتُبيّن أنّ مَن ابتدع عبادةً لم يُكلَّف بها، فإنَّه غالبًا لا يُحسن رِعايَتَها والتزامَها.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/ 307.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 307.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 479.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 308.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 425.

دلالَةُ نَفْي رعايَتِهِم لَها بـ(ما):

تأكيدُ انتفاءِ رِعايَتِهِم الرَّهبانيَّةَ المُبْتَدَعَة

(ما) من قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ نافية[1]، وهي تفيدُ التَّأكيدَ في النَّفْي والقطع بهِ، فجاء النّفيُ بها؛ ليُدلَّ على تأكيدِ انتفاء الرّعاية، ممّا يُظْهِر أنّ التّقصير كان متأصِّلًا متجذِّرًا، لا أمرًا عارضًا.

لَومُهُم على تَقْصيرِهِم في الوفاءِ بالعُهودِ وتَقَهْقُرُهُم عَن مراتِبِ الكَمالِ

والنّفيُ في قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ يتناول أيضًا كمال الرّعاية، فالمقصود أنّهم لم يحفظوا شؤونَ الرّهبانيَّة حفظًا تامًّا يليق بما التَزَموهُ، فجاء الكلام مسوقًا لِلَّوْم على تَقْصيرِهِم في الوفاء بما ألْزَموا بهِ أنفُسَهُم، وهو تَقَهْقُرٌ عَن مراتب الكمال التي ينبغي للمُتَّقي أن يزدادَ فيها[2]، لا أن يتراجَعَ عنها، ولهذا جاء الحديث الشّريف مؤيِّدًا لهذا المعنى: «أحَبُّ الأعْمالِ إلَى اللّهِ تَعالَى أدْوَمُها، وإنْ قَلَّ»[3]، فالاستمرارُ في الطّاعة هو علامة الكمالِ.

سِرُّ التّعبير بالرّعايةِ دون الحِفْظِ:

عنايَةٌ مشوبَةٌ بالخَوْفِ مِنَ الضَّياعِ

اختير فعل الرّعايَةِ دونَ الحِفْظِ؛ لأنّه يدلُّ على حفظٍ وعنايةٍ مشوبين بالخَوْفِ مِن الضَّياعِ[4]، لا مجرّد صونٍ، فكان أبلغ في التّوبيخِ عَلى التّفريطِ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالفعل الماضي: ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾:

تقصيرٌ واقِعٌ واستحقاقٌ للَّوْمِ ثابتٌ

في التَّعبيرِ بالفعل الماضي المنفي في قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ دلالةٌ على أنّ التّقصيرَ في رعاية الرّهبانية أمرٌ متحقِّق، فهو ليس احتمالًا أو أمرًا مستقبليًّا ممكِنَ الوقوعِ، بل واقعٌ ثابتٌ؛ ولذا استحقّوا عليه اللَّوْمَ.

بلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في قولِهِ: ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾:

تصويرُ الرَّهبانيَّةِ في صورةٍ محسوسةٍ تقريبًا لها إلى الأذهانِ

في قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ استعارة؛ إذ شُبِّهت الرّهبانيّة بالدّابَّة

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 511.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 462.
(3) رواه البخاري في صحيحه برقم: (6465)، ومسلم في صحيحه برقم: (783).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 308.

التي تحتاج إلى رعاية دائمةٍ، واستُعير الرّعيُ؛ للدّلالة على الحِفْظِ المصحوبِ بالعِنايَة والخوف من الضّياع، فتكون الاستعارةُ مكنيَّةً تبعيَّةً، فالرّهبانيّة تقتضي مجاهدةَ النّفس، وترك اللّذائذ، والصّبر على الطّاعات، فإذا وقع التّفريطُ في شيءٍ من ذلك؛ فقد انتفت رعايتُها[1]، فجاءت الاستعارةُ؛ لبيانِ تقصيرِهم في حفظِها بأسلوبٍ تصويريٍّ.

دلالَةُ التَّقْييدِ بقولِهِ: ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾:

ظُهورُ صورٍ مِنَ الخَلَلِ في الرَّهبانيّة المُبْتَدَعَة

جاء التَّقييد بـ ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾؛ ليُبيّن أنّ الخلل لم يكن في أصلِ الرّعاية، بل في كمالها وصِدْقها، فالنّفيُ مُسلَّطٌ على مرتبةِ الإحسانِ في الالتزام، لا مُطْلَقِ العمَلِ، وقد تنوَّعت وجوهُ هذا التّقصيرِ، فمنهم مَن ضَمَّ إلى الرّهبانيَّة عقائدَ باطلةً، كالتّثليث والاتّحاد، ومنهم مَن قصد بها الرّياءَ وطلبَ الدّنيا، لا مرضاة اللّه تَعالى، ومنهم مَن تَرَكها بَعْدَ أن التَزَمَ بها، ومنهم مَن أدرك النّبيَّ ﷺ ولم يُؤْمِن به، فكان عدمُ الإيمان علامةً على التّفريط، ومنهم مَن اقتدى بالصّالحين في القولِ دونَ العمَلِ[2].

دلالَةُ إضافَةِ الصِّفَةِ إلى الموصوفِ في ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾:

الرِّعاية المنفيَّة هيَ الكاملَةُ التّامَّة دون أصْلِها

الإضافةُ في قول اللّه تعالى: ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ من إضافةِ الصّفة إلى الموصوفِ، والأصل: فما رَعَوْها رعايتَها الحقَّةَ، وفيها تأكيدُ أنّ المطلوب ليس مطلقَ الرّعاية، بل كمالها وتمامها، فالرّهبانيّة تُرعى بصونِ الأعمال من الرّياء، ورعاية الأحوالِ بالصّدق في المجاهدة، ورعاية الأوقات بالحضور معَ اللّهِ تَعالى دون غفلةٍ[3]، فكلّ تفريط في هذه الجوانب يُعدّ إخلالًا بحقّ الرّعاية، ولذلك جاء التّعبيرُ لإدانَةِ مَن قَصَّر في جَوْهَر الالتزام، لا مَن اجتهد فيه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 425 - 426.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 474.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 308.

وفي الإضافةِ أيضًا معنى نفي بُلوغِ الرّعاية غايتَها وكمالَها، فالحقُّ هنا بمعنى الكاملِ التّامِّ، أي: الرّعاية التي تقع على أكملِ أحوالِ نَوْعِها، وهذه الإضافة تُبيّن أنّ المطلوبَ هو الرّعاية الصّادقة التي تستوفي شروطَها من إخلاص، ومتابعة، ومداومة، فجاء المفعول المطلقُ؛ ليُبيّن نوع الرّعايةِ المَنْفيَّة[1].

سِرُّ التّعبير بـ لفظ الـ﴿حَقَّ﴾ دون غيره:

نفيُ الاستيفاءِ التّامِّ لمَقامِ الرَّهْبانيَّة

التّعبير بـ ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ دون (أكمل رعايتها)، يُفيد الاستيفاءَ الكامل لِما تقتضيه الرّهبانيّة من أعمالٍ وأحوالٍ ونيّاتٍ، لا مُطلقَ بلوغِها درجةً عاليَةً منها، فالمعنى: أنّهم لم يراعوا حقوقَها كما ينبغي، بل راعوا بَعْضَها، وأهملوا بعضَها الآخر، بخلافِ ما لو قيل: (أكمل رعايتها؛ لاحتمل أنّ بعضَهُم بلَغَ درجَةً مقبولَةً دونَ الكَمالِ، فيكون الذَّمُّ جزئيًّا[2].

بلاغَةُ الجناسِ بين ﴿رَعَوْهَا﴾ و﴿رِعَايَتِهَا﴾:

تأكيدُ مَعْنى الإهمالِ والتّقصيرِ، ومُضاهاةُ الصّيغةِ اللّغويّةِ للواقعِ المَوْضوعيِّ

في قول الله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ جناسُ الاشتقاقِ بين ﴿رَعَوْهَا﴾ و﴿رِعَايَتِهَا﴾؛ إذ اشتركت الكلمتان في الأصل اللّغوي (رعي) مع اختلاف الصّيغة، فيسمّى مُغايرًا[3]، وهو مِمّا يُحدِثُ جمالًا صوتيًّا يُؤكِّدُ المعنى، ويُقوّيه، ويَرْسُم صورةً حيَّةً للإهمالِ والتّفريط، فالتّعبير بالرّعي، وهو حفظ الشّيء والحفاظ عليه؛ يناسب أنّهم قصّروا في حفظ هذه البدعةِ حتّى بَعْدَ التزامِهم لها، فكان التّقصيرُ مُضاعَفًا؛ ابتداعًا ثمّ إهمالًا، فجاءت الصّيغةُ اللّغويَّة مطابقةً للمعنى، شاهدة عليهم بعدَمِ الجدّيَّةِ مطلقًا، حتّى في باطلهم.

دلالةُ الواو مع فِعْلِ الرِّعايةِ:

الواو في قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ واو الجماعةِ، وقد اختلف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 426.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 478.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 518.

توبيخٌ جماعيٌّ لكلِّ مَن قصَّر أو فرَّط، سواءٌ أكان ذلك بالفِعْلِ أمْ بالسُّكوت

المفسّرون في هذه الواو، فذهب جماعةٌ إلى أنَّها تعود إلى الذين ابتدعوا الرّهبانيّة، ثُمّ فرّطوا فيها، وذهب آخرون إلى أنَّها ترجِعُ إلى الملوك الذين اضطهدوا الرّهبان، ومن أهل العلم من يرى أن مرجع الضَّمير هُم الأخلاف الذين ورِثوا الرّهبانيَّة دون أن يَلتزِموا بها[1]، فجاء التّعبير بصيغة الجمع؛ ليُحمِّل الجميع مسؤوليَّة التّفريط، سواءٌ أكان ذلك بالفعل أم بالسّكوت، وليُقرّر أنّ من التزَمَ عبادةً أو تطوّعًا؛ لزِمَهُ أن يرعاهُ حقَّ رعايَتِه، وإلّا كان مذمومًا.

والواوُ في هذا السّياق جاءت لنسبةِ التّفريط إلى الجميع، مع أنّ الواقع أنّ بعضَهُم هو الذي فرّط[2]، وهذا الأسلوب البلاغيُّ يُستعمَل للتّغليب أو للتّوبيخ الجماعيِّ؛ لأنّ التّفريطَ في أمر دينيٍّ جماعيٍّ يُعدّ تقصيرًا من الجماعةِ كُلِّها.

بلاغةُ إضمارِ الرّهبانيّةِ في قوله: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾:

تحقيرُ الرّهبانيّةِ وذمُّ المُبتَدِعِ المسؤولِ عَن تَفْريطِهِ

أُضْمِرَت الرّهبانيَّة في ﴿رِعَايَتِهَا﴾، مِنْ قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾؛ لتقدُّم ذِكْرِها قريبًا، وللدّلالة على تحقير شأنِها، وعدم استحقاقها للذِّكر الصّريح، فجاء الضّميرُ (ها) إيحاءً بأنّها أمرٌ لا قيمة له في ميزانِ الشَّرْعِ، مع الإشعار بأنّهم هم المسؤولون عنها، وقد فرّطوا فيما التزَموهُ مِنْ بِدْعَتِهم، فجمعَ الإضمارُ بين تحقيرِ المُبْتَدَع، وذمِّ المبتدِع.

مَعْنى الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَآتَيْنَا﴾:

الأجْـرُ الحسنُ ثمرَةُ النَّجاة مِنَ الغلوِّ والانحِرافِ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَآتَيْنَا﴾ دالَّةٌ على السّببيَّة، فهذه الفاءُ تَفْصِلُ المصيرَ، وتُعلن العدلَ الإلهيَّ، فبِسَبَبِ إيمان الذين آمنوا منهم؛ آتاهم اللّهُ تَعالى أجْرَهُم الخاصَّ بهم؛ لتَمْييزِهِم من الكثير الفاسِق الذي استمرّ في الغلوِّ والانحراف، مؤكِّدَةً أنّ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 270.

(2) مكي القيسي، الهداية: 11/ 7335، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 482.

الإيتاءَ كانَ نتيجةً وثمرةً لنَجاتِهِم مِنَ الوقوع في المُروق الكلّيِّ عن الدّينِ[1].

وفي الفاءِ مَعْنى التَّفْريع أيضًا، فهي تربطُ بينَ ما سبَقَ مِن جَعْلِ الرّأفة والرّحمة في قلوب أتباع عيسى ﷺ، وبينَ الجزاء الذي نالهُ المؤمنون مِنْهُم، فدلَّت عَلى أنَّ الإيمان الصّادقَ هو الذي ترتَّب عليهِ الأجْرُ، وما بينَ الجُمْلَتَيْنِ مِن ذِكْرِ الرّهبانيَّة وعدم رعايتها يُعدُّ استِطرادًا[2]، لا يقطَعُ السّياق، بل يُعمِّق المعنى، ويبرز أنَّ الجزاءَ لَم يكُن لِمَن ابتدع، أو فرَّطَ.

دلالة التَّعبير بالفِعْلِ الماضي، مُسندًا إلى ضميرِ العَظَمَةِ:

عـظَـمَـةُ الإيـتـاءِ وفاعِلِه، وفخامَةُ الأجر المُعْطى

في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا﴾ إخبارٌ بأنّ الذين آمنوا، ثمّ ثَبَتوا على إيمانهِم، يوجَبُ لهُم الأجرِ العميمُ[3]، وعُبِّر عنْهُ ماضيًا؛ لإفادَةِ تحقُّقِ هذا الإيتاءِ وثبوتِه، وأُسنِدَ الإيتاءُ إلى ضمير العَظَمَةِ (نا)؛ تفخيمًا لشأن الإيتاءِ؛ لكونِهِ صادرًا عن اللّهِ سبحانه المتّصف بصفات الكمال المطلقةِ[4]، وفيه تفخيمٌ للفاعلِ ﷻ، وتعظيمٌ للأجرِ الذي يُؤتاهُ أهل الإيمانِ.

دلالَةُ التّعبير بالإيتاء دونَ الإعطاءِ:

عظمةُ الثَّـوابِ الإلـهـيِّ لأهْـلِ الإيمانِ

في التَّعبيرِ بالإيتاءِ في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا﴾ إيماءٌ إلى عظمَةِ الأجر الذي أوتيَهُ أهل الإيمان؛ لأنَّ طريقةَ القرآن الكريم استعمالُ الإيتاءِ فيما كان شأنُهُ عظيمًا، ولذا استُعمِلَ مع القرآنِ والتَّوراة والإنجيل والثَّوابِ بخلاف الإعطاءِ فلا يلزَمُ فيهِ ذلكَ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالمَوْصولِ وصِلَتِه:

بـلـوغُ المؤمنين في ثباتِ الإيمان درجَةً عاليَةً

آثَر البيانُ القرآنيُّ التّعبير بالموصول وصلَتِهِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 309.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 426.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 539.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 309.

لترسيخِ العلّة والسّببيَّة، فجملةُ الصِّلةِ تُثبِّت صفةَ الإيمان باعتبارِهِ أصلًا وشرطًا جوهريًّا للأجْرِ العظيم[1].

مَـــنْ يـــتردَّد بـين الإيـمـان والكفر والاتّباع الظاهري يخرج مـــن وصـــف الإيمان

ويشير هذا التّعبيرُ إلى فئة تمسّكت بالإيمان الكامل والثّابت، لا الاتِّباع الظّاهريّ أو العارض، فاختيارُ الفِعْلِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾، مع إرادة التّعميم يُفْهَمُ منهُ تحقُّق الإيمانِ واستمراره، أي: إنَّ هؤلاء قَد بَلَغوا درجَةً مِنَ الثّبات العَقَديِّ تجعَلُ الإيمانَ وصفًا ملازمًا لهم، وفي هذا التّعبيرِ أيضًا إشارة إلى أنَّ مَن يتقلّبُ بين الإيمان والكفر، ويتردَّد في أمره؛ لا يُدرَج ضِمْنَ هذا الوصف، وإن لم تجرِّده معصيته مِن أصلِ الإيمان، وذلك كما يُفْهَمُ مِن ختم الآية الذي تضمَّن ذمًّا للتقلُّب والغلوِّ، ومدحًا للاقتصادِ والاعتدالِ[2].

سِرُّ تقديمِ شبه الجملة ﴿مِنْهُمْ﴾:

تَخْصيصُ الأجْرِ العَظيمِ بأهْلِ الإيمانِ

قُدِّمَ القيد ﴿مِنْهُمْ﴾ في قوله: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾؛ لتحقيقِ الحَصْرِ والاختصاص، مؤكِّدًا أنَّ العطاءَ مُقْتَصِرٌ على طائفة معيَّنة مِنَ المؤمنين، وفي الوقت ذاته يومِئُ هذا التّقديمُ إلى تلك الطّائفة بالاهتمام، مُركِّزًا العنايةَ على خصوصيَّة استحقاقِهم الأجْرَ دونَ غَيْرِهم.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ(مِنْ):

اخْتِصاصُ الأجْرِ بـطـائِـفَـةٍ مِـنَ الـذيـن اتَّـبَـعـوا عيسى عليه السلام

(مِنْ) في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ حرفُ جرٍّ يدلُّ على التّبعيض، والمعنى: أنّ الثّواب كان لبعضٍ مخصوصٍ مِن هؤلاء، لا للجميع، وهم الذين صَدَقوا في إيمانِهم، وأكملوهُ، فآمنوا بعيسى عليه السلام والرّسلِ مِنْ قبله، وآمنوا بمحمَّدٍ ﷺ، موافقين لِما في كُتُبِهم مِنَ البِشارَةِ به، فاستَحَقّوا الأجْرَ بإيمانِهم الصّادق لا بمجرَّد الانتماءِ[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 482.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 309.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 309.

سرّ التّعبير بالأجر منكَّرًا دون الجزاء أو الثّواب:

المكافأة اللائقة والرّضوان المضاعف المناسب لتضحياتهم تعبيرٌ عن كرم الله تعالى

استعمل مفردة الأجر نكرة دون الجزاء أو الثّواب في إشارة إلى مكافأة لائقة ومناسبة لهم تتجاوز مجرَّد المكافأة العادية، فالأجر هنا يعني الرِّضوان المضاعف[1]، وهو نوع من الثّواب العظيم الذي يعبِّر عن كرم الله وجوده.

دلالَةُ إضافَةِ الأجْرِ إلى الضّمير (هُمْ):

عِظَمُ إيمانِهِم سببٌ استِحقاقِهِمُ الأجْرَ

أُضيفَ الأجرُ إلى الضّمير (هُمْ)؛ لإفادَةِ التَّخصيصِ والملك، فكأنَّ الأجْرَ أصْبَحَ مِلكًا مُستحقًّا لهم وحدَهم، وهذه الإضافَةُ تدلّ على أنّ الجزاءَ هو الرّضوان المضاعَفُ اللّائق بتَضْحياتِهِم وإيمانِهِم[2]، ويؤكّد على أنّه جزاء مُفصَّل على قَدرِ فِعْلِهِم، والمعنى: فآتينا الذين آمنوا "أجر إيمانهم وأعمالهم بأضعاف ما استحقّوا وآلافها"[3]، وهو جزاءٌ مقابلُ إيمانِهِم وأعمالهم، بل يتجاوز استحقاقَهُم؛ ليُناسِب كرَمَ المانِحِ.

معنى الواوِ في قولِهِ: ﴿وَكَثِيرٌ﴾:

إبرازُ المُفارَقةِ بينَ حالِ الفاسِقينَ وجزاءِ المؤْمِنينَ

الواو في قوله ﴿وَكَثِيرٌ﴾ حرفٌ دالٌّ على الاستِئنافِ[4]، تفيد الابتداءَ بجُمْلَةٍ جديدةٍ تُقرِّر مَعْنًى آخر، ليس معطوفًا على ما قبله في الحكم، فبَعْدَ أن بيّن الله تَعالى جزاءَ المؤمنين منهم؛ استأنَفَ الحُكْمَ بذِكْرِ حال الغالبِ، فقال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾، أي: خارجون عن الطّاعة، لا يشملهم الجزاءُ المذكور، فالواوُ هنا تُفيد الانفصالَ المعنويَّ، وتُبرز المفارقة بينَ حال الفريقين، ومآلِهِم.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ (كَثير) دون (أكثر):

الخروجُ عَنِ الحقِّ فعلُ فظيعٍ يستحقّ الذّمَّ والتّحذير

اختار البيان القرآنيُّ لفظَ (كَثير) دون (أكثر)؛ للتَّدليل على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 309.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 309.
(3) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 392.
(4) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 538.

أنّ الفاسقين فئةٌ ضخمة ومهولة بذاتها مِنْ غير حاجةٍ إلى عقْدِ المقارنَةِ بأهل الإيمانِ بلفظِ (أكثر)، وهذا التّعبير يَحْمِلُ دلالةَ الذَّمِّ والتّحذير من فظاعَةِ هذا الخروجِ عَن الحقِّ، حتّى وإن كان عدَدُهم يفوقُ عددَ أهل الإيمان الصَّحيح[1].

الموازنَةُ بينَ وصْفِ الواقِعِ وحِكْمَةِ التَّكْليفِ:

والتَّعبير بلفظ (كثير) يُصَوّر حالَ طائفة متحقِّقةٍ في الواقع على وجهٍ يُحافِظُ على سعَةِ المعنى واستيعابِ الاستثناءات، بخلاف لفظ (أكثر) الذي يُغْلِقُ بابَ الإمكان دون مَن بَلَغَتْهُم الحجَّةُ، فاستجابوا، فكانت الكلمة قصدًا إلهيًّا يوازن بين وصفِ الواقع، وحكمةِ التَّكليف[2].

سرُّ تكرار ﴿مِنْهُمْ﴾:

خـروج الفسقِ مِـــن داخـــلِ الـجـمـاعَـةِ الـتـي ابـتـدعَـت الرّهبانيّة لا مِن خارجِها

كُرِّر القيد ﴿مِنْهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ بعد تقدُّم ذِكْرِه ليس من بابِ التّكرارِ المحض، بَل لِما فيه من توكيدِ المعنى وتشديدِ المَسْؤوليَّة، أي: إنَّ الفسق لم يأتِ من غَيْرِهم، بَل من الجماعة التي ابتدعَت الرّهبانيَّة وضيّعتها[3]، فكان في الإعادة تحميلٌ صريحٌ لَهُم، وبيان أنّ الانحرافَ كان مِن داخل الصفِّ لا من خارجِهِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفِسْقِ دونَ الكُفْرِ:

دلالَـةُ الفِسْقِ عَلى كلِّ خُروجٍ عَن الطّاعَةِ

عُبِّر بلفظ الفسقِ في قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ لِسَعَة دلالَتِه ودقّتها؛ إذ شَمِلَ وصفًا لمن خرج عن الطّاعة الصّحيحة، وهذا الوصفُ يتجَنَّب الإطلاقَ الحادَّ، وهوَ الكُفْرُ؛ ليَصِفَ حالَ مَن لَم يُؤْمِن بمحمّد ﷺ، أو أشرك بشأنِ عيسى عليه السلام، أو انحرف عن القانونِ الصّحيح للرّهبانيَّة[4]، فكان الفِسْقُ جامعًا لدلالة التّمرُّدِ على الحقِّ.

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 232.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 360.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 309.
(4) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 239.

ظاهرهم الإيمانُ وباطنهم الزَّيْغُ والعُدْوان

وعلى الرّغم من أنّ الفِسْقَ قَد يُراد به الكُفْرُ المُطْلَق في هذا السّياق، فقد جاء التّعبير بـ ﴿فَٰسِقُونَ﴾؛ ليدلّ على مَن أفسدَ إيمانَه مِن أتباعِ المَسيح، مُدّعين اتّباعَهُ صوريًّا، وهذا الاختيارُ البَيانيُّ يخصّ بالذّمّ فئةً التَزَمَت الدّين ظاهرًا لكنّها نقضَت حقيقةَ التّوحيد، فكان الفِسْقُ وصفًا دقيقًا لخروجهم عَن أصلِ دينهِم المُلْتَزَم به[1].

استيعابُ لَفْظِ الـفِـسْـقِ لـكـلِّ تمرُّدٍ على الحَقِّ

ويَشْمَلُ وصفُ الفِسْقِ كلَّ خروجٍ عَن سواءِ السّبيل، سواءٌ أكان كُفْرًا صَريحًا أمْ معصيةً عظيمةً، فهو وصف دقيقٌ لا يحصر الإدانةَ، بل يجمَع كلّ من بدّلَ الكتابَ، أو أكل أموال النّاس بالباطلِ أو غير ذلك، يجمعُهم تحت معنى الفِسْقِ الشّامل للتّمرُّد على الطّاعة[2].

سرُّ التّعبير باسمِ الفاعل ﴿فَٰسِقُونَ﴾:

ثـبـاتُ الـفِـسْـقِ فيهِم ودَوامُهُ

عُبِّر بالاسم ﴿فَٰسِقُونَ﴾ بدل الفعلِ (يفسقون)؛ للدّلالَةِ على الدّوام والثّبات، فهم عَريقونَ ومُتَجَذِّرون في حالِ الخُروجِ عَن حُدودِ اللّهِ تَعالى[3]، ففي التّعبير بالاسمِ توكيدٌ لِعُمْقِ الانحرافِ واستحالَته إلى صفةٍ ملازمَةٍ لَهُم.

بيان المتشابه اللفظي بينَ هذهِ الآيةِ وآيةِ المائدة:

اخـتِـلافُ السّياقِ بـيـنَ خُـصـوصـيَّـةِ بَـنـي إسـرائـيـلَ وعُمومِ الرِّسالَةِ

اختلَف التّعبير في آيتَي المائدَةِ والحديدِ في ذكر من قُفّي بهم قبلَ عيسى ﷺ، فورد في سورةِ المائدة قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 46]، دون ذكر الواسطة (برُسُلِنا)، بخلاف الذي في سورةِ الحَديدِ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾، فقد ذُكِرت الواسِطَةُ أوّلًا، ثُمّ خُصَّ عيسى ﷺ بالذِّكْرِ، وذلك أنَّ السّياقَ في سورة المائدةِ كان كلُّه منصبًّا على بني إسرائيلَ بَدْءًا مِن أخْذِ الميثاقِ، ثُمّ استمرَّ الحديثُ عنهم في الآيات بعَدَها، متناولًا نَقْضَهُم للمَواثيقِ، وتحريفَهُم للكُتُب، وارتكابَهُم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 426.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 427.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 309.

المُخالَفاتِ، والحُكْمَ بغَيْرِ ما أنزل اللّهُ تعالى، مَعَ تسليَةٍ للنّبيِّ ﷺ في مواجهة مواقفهم، وغيرها من الآيات التي تركّز على بني إسرائيل دون غيرهِم، ولَمّا كان جميعُ الأنبياءِ المذكورين في هذا السّياق من بني إسرائيل، وكان عيسى ﷺ خاتمَهُم؛ جاءَ ذِكْرُهُ مباشرةً بعدَهُم دون حاجةٍ لذِكْرِ (برُسُلِنا)؛ لأنّ التّقفيَةَ به كانَت امتدادًا طبيعيًّا لمَسارِهِم، فاقْتَضى السّياقُ الإيجازَ والاختصار، وجاء التّعبيرُ منسجمًا مع وحدة الأمّة المخاطَبة، أمّا في سورة الحديد؛ فإنَّ السّياق مختلفٌ تمامًا؛ إذ هو خطابٌ عامّ موجّه إلى المؤمنينَ، يتضمّن موعظَةً وتَرْغيبًا وتحذيرًا، ويعرِضُ نماذِجَ مِن الأُمَمِ السّابِقَة، ويُذكِّر بنِعمَةِ إرسالِ الرّسُل إلى البشريَّة جمعاءَ، لا إلى بني إسرائيلَ فَقَط، فبدأ السّياقُ بذِكْرِ نوحٍ وإبراهيمَ ﷺ، وبيان ما جعل اللّه تَعالى في ذرّيَّتهما من النّبوّة والكتاب، ثُمّ أتبعَ ذلك بقوله: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾؛ إشارةً إلى الرّسل الذين جاؤوا بعدَ نوحٍ وإبراهيمَ ﷺ - وهُم كثيرونَ - ثُمَّ خُصّ عيسى ﷺ بالذِّكْرِ؛ لأنّه خاتِمَةُ أنبياءِ بني إسرائيلَ، وصاحِبُ كتابٍ مُنَزَّل، فاقْتَضى السّياقُ الإطنابَ والتّفصيل؛ ليَشْمَلَ جميعَ الرّسل الذين أُرسِلوا إلى الأمم المختلفةِ، ويُبْرَزَ عيسى ﷺ في موقعهِ الخاصِّ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(قفّينا) و(أتبعنا):

التَّقفيةُ أخصُّ من الاتِّباعِ وأدقُّ مِنْهُ

أصل القَفْوِ في اللّغةِ: مُتابعَةُ الأثَرِ والتَّتَبُّع، تقولُ: قفوتُ أثَر فلانٍ أقفوهُ قَفوًا؛ إذا اتَّبَعْتَ أثرَه، وسُمّيت القافيةُ في الشّعر قافيةً؛ لأنَّها تقفو البيتَ، وسُمّيت القبيلةُ المشهورة بالقافَةِ؛ لأنَّهم يَتَّبعون آثارَ أقدامِ النّاس، ويستدلّون بها على أحوالهِم، وسُمّي القَفا قفًا؛ لأنّه مؤخّر بدنِ الإنسان، كأنّه شيء يتبع، ويقفى[2]، فكان لفظُ القَفْو

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/ 135 - 137.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 338 - 339.

أخصُّ من الاتِّباعِ، و(قَفَّينا) أخصُّ من (أتبعنا)، وقد استُعْمِلَ الفِعْلُ (قَفَّينا) دون (أتبعنا)؛ لكونِهِ يحملُ معنى التَّتبُّع الدَّقيق للأثر والاهتداء إلى الحقائق عبر الرُّسل بخلافِ الاتِّباع؛ فلَيْسَ فيهِ التَّتبُّع الدَّقيق الذي في فعل التَّقفيَةِ.

الابتداع والإحداث:

الابتداعُ: إنشاءُ ما لا أصلَ لهُ، والإحداثُ أعمُّ مِنْهُ

لفظُ الابتداعِ دالٌّ على إنشاءِ شيءٍ لا أصْلَ لَهُ في الشَّرْعِ، وهو "إيجادُ ما لَم يُسْبَق إلى مثله"[1]، بخِلافِ الإحداث الذي قَد يَشْمَلُ ما لَهُ أصلٌ، وإنَّما نُظِرَ إليه باعتبارِ حدوثِهِ، واستُعْمِلَ الابتداعُ في قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾؛ لأنَّ الرّهبانيَّة لم تكُن مأمورًا بها في كِتابِهِم، ولا على لسانِ رسولِهِم، وإنَّما اخْتَرعوها من تلقاءِ أنفُسِهم، فكان التّعبير بالابتداع أبلَغَ؛ إذ يُشير إلى غرابةِ الفِعْلِ، وانفصالِهِ التّامِّ عَن الوَحْيِ.

الرّعاية والحِفْظ:

الرّعايةُ أخصُّ من الحِفْظِ؛ لأنَّها حفظٌ مع دوامِ المُراقبَةِ والتَّعهُّد

الرِّعايَةُ ليسَت مجرَّد حِفْظٍ مِنَ الضّياع، بل هي القيامُ بالأسبابِ التي تَقي الشّيءَ مِن الفَسادِ والضَّياع، مع دَوامِ المُراقبَةِ والتَّعَهُّد، كرَعْيِ المواشي الذي يتفقَّدها صاحبُها، ويَصْرِفُ عنها الأذى، فالرِّعايةُ أخصُّ من الحفْظِ، وكذا فإنَّ نقيضَ الحِفْظِ: الضّياعُ، بخلاف الرّعايةِ فإنَّ نقيضَها: الإهمالُ، والإهمالُ هو السّبب المؤدِّي للضّياع[2]، ومِن ثمّ جاء التّعبير بالرّعاية في قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ دون الحفْظِ؛ لتصوير أنّهم لَم يَقوموا بالرّهبانيَّة حقّ القيام، لا رقابةً ولا التزامًا ولا عنايةً، فجاءت الصّيغةُ أوقَعَ في الكَشْفِ عن تقصيرهم في المعنى العمَليِّ المستمرِّ، لا مجرد التَّفريط اللّحظيِّ العارِضِ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 133.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 192.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الستون،
سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 60 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-66-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 60 : المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-66-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5294607 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"